الأحـــاديـة فى اللغـــة

نقف الآن وقفة بين يدى « الأحادية فى اللغات بعامة ، وفى العربية بخاصة » .

يرى بعض العلماء أن كل لغات العالم القديم تعاقبت عليها أطوار وأدوار ، وأن طورها الأول ، جعل من كل كلمة من كلماتها (هجاء واحدا ، فتوضع الكلمة احداها بعد الأخرى ، بحسب نظامها النطقى لتأدية المعنى المقصود ، ولغة الصين الى الآن على هذا الوضع) . ويؤيد ذلك الشيخ (١) العلايلى للغات كلها (٢) ـــ وان دورها الأول : (ذو المقطع السيط ، أى أدنى المقاطع ، مثل (a) وهذا هو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، والتى هى الجدول الهجائى الفينيقى المتخيل ، وسنذكره فيما بعد ، ويرى أن هذا الجدول يحدد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى السنة الناطقين الأوائل باللغة .

وهذه المرحلة قديمة قدم التاريخ ، تربط بين اللغة والانسان الفطرى الذى (لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصـــائله المشاكلة) .

---

(١) الشيخ العلايلى دائب النظر فى اللغة العربية ، بفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ويجيد عدة لغات ، وشرع فى محاولة جريئة لوضع (المعجم العربى) وحده ، لوثوقه من نفسه فجاءت محاولة فذة ، حبذا لو تبنتها المعاجـــم اللغوية ، لتتم ما بدأ .. وما رأيته فى (بيروت) على مدى عامين ـــ أمـــد الله فى عمره ـــ الا عاكفا على قاموس قديم يراجعه ، أو فكرة لغوية يحللها ، أو شاردة وواردة يقيدها .

(٢) مقدمة لدراسة لغة العرب . للشيخ العلايلى ص ٢٣ .

ويرى الشيخ ان هذه الأصوات لم تنطبع بطابع خاص يميزها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية ، التى تولدت عن الانفعالات ، ولم تتشكل فيها الأصوات ولم تتميز فيها المقاطع : (كالأنين ، والعنين ، والأحيح ، والهمهمة ، والزحير ، والنحيم ....) وضرب لذلك مثلا بالمقطع (عو) بضم العين ، الذى يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) الذى يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) بمعنى وصل فى العبرية . ثم تطورت هذه الأصوات حتى أصبحت ذات اغراض ثابتة بعد تولد المقاطع الأحادية ، ومنها تكون الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها من أصوات ، وكل حرف صامت ، أو مصـــوت (حركة) فى هذا الجدول له دلالة مستقلة و « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغة .. على شىء من الافتراض المقلوب، وسبيل هذا التعيين المعلات (اى الأفعال المعتلة) مطلقا وبالأخص اللفيف مطلقا فى العربية ، وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد وانمـــا تنتقل فيها بالمقـــارنة الى ما هو الأدخـــل فى تفكير الســـاذجين واعتباراتهم » .

وأحال الشيخ العلايلى على لغات سامية ، للحصول على نماذج تقرب الدلالة الأصلية للحرف أو الصوت :

فاللغة (الفينيقية) استخدمت فى رسم مقطع الألف (ء) شكل رأس الثور ، ومعنى هذا المقطع أيضا هو رأس الثور .

ومثل هذه الحروف كانت تدل على أجناس معانيها الفينيقية فى العهود الأولى .

فبداية استعمال الانسان اللغة كانت أحادية ، فى صورة أصـــوات وحروف منفصلة ذات دلالات قديمة ، ثم تطورت هذه المقاطع الأحادية الى ثنائية وثلاثية .. كما صورها الشيخ العلايلى فى افتراضاته وتصـــوراته المبنية على الشواهد وسنة الرقى ، وارتقاء الأدوار .

الجدول الهجائى الفنيقى :

نثبت هنا نص الجدول الهجائى (١) ، الذى رآه الشيخ العلايلى نواة للغة فى دورها القديم :

١ ــ الهمزة : تدل على الجوفية ، وما هــو وعاء للمعنى ، وتــــدل على الصفة غالبا .

٢ ــ الباء : تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغا تاما ، وعلى القوام الصلب بالتفعل .

٣ ــ التاء : تدل على الاضطراب فى الطبيعة ، أو الملابس للطبيعة فى غير ما يكون شــديدا .

٤ ــ الثاء : تدل على التعلق بالشىء تعلقا له علاقته الظاهرة ، سواء فى الحس أو فى المعنى .

٥ ــ الجيم : تدل على العظم مطلقا .

٦ ــ الحاء : تدل على التماسك البالغ ، وبالأخص فى الخفيات ، وتدل على المائية .

٧ ــ الخاء : تدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشي مطلقا .

٨ ــ الدال : تدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع .

٩ ــ الذال : تدل على التفرد .

١٠ ــ الراء : تدل على الملكة ، وعلى شيوع الوصف .

١١ ــ الزاى : تدل على التقلع القوى .

١٢ ــ السين : تدل على السعة والبسطة من غير تخصيص .

١٣ ــ الشين : تدل على التفشى بغير نظام .

١٤ ــ الصاد : تدل على المعالجة الشديدة .

١٥ ــ الضاد : تدل على الغلبة تحت الثقل .

١٦ ــ الطاء : تدل على الملكة فى الصفة ، وعلى الانطواء والانكسار .

١٧ ــ الظاء : تدل على التمكن فى الغؤور .

١٨ ــ العين : تدل على الخلو الباطن أو الخلو مطلقا .

١٩ ــ الغين : تدل على كمال المعنى فى الشىء .

---

(١) المصــدر السابق ص ٣١٠ .

٢٠ ــ الفاء : تدل على لازم المعنى (اى الوضع فى المعنى الكنائى) .
٢١ ــ القاف : تدل على المفاجأة التى تحدث صوتا .
٢٢ ــ الكاف : تدل على الشىء نتج عن الشىء فى احتكاك .
٢٣ ــ اللام : تدل على الانطباع بالشىء بعد تكلفه .
٢٤ ــ الميم : تدل على الانجماع .
٢٥ ــ النون : تدل على البطون فى الشىء ، او على تمكن المعنى تمكنا تظهر أعراضه.
٢٦ ــ الهاء : تدل على التلاشى .
٢٧ ــ الواو : تدل على الانفعال المؤثر فى الظواهر .
٢٨ ــ الياء : تدل على الانفعال المؤثر فى البواطن .

وفى نظرة سريعة للمعانى التى أثبتها الشيخ للجدول الهجائى ، نجد : تمكنه واحاطته اللغوية ، لطول معاناته وكلفه باللغة .

كما نجد ان المعانى تحيط بحاجيات الانسان الأول ، بل وتفوقها ، ففيهـــا :

الشىء وصفته ، واللين والصلابة ، والاستقرار والقلق ، والتماسك والتلاشى ، والتفرد والانجماع ، والغلبة والانكسار ، والتوقع والمفاجأة ، والطبع والتطبع ..

ولذا يدعونا الشيخ العلايلى واضعو اللغة الجديدة الى الاقدام على ، الوضع ، لتفى لغتنا بما نطلبه منها ، بدون تردد أو خوف ، لأنه : «بتقرير هذه القواعد للاشتقاق أصـــبح الوضع معبدا جـــدا : فهو من موقع المـــادة فى التفريع ، ومن هيئة ــ اجتماع الحروف يعين الخصوصية فى غير تكلف .

« .. فروح الشيخ الثائرة تدعونا للوضع الجديد ، وهى دعوة حرية بالنظر والتفهم والتنفيذ ، حتى لا تتهم لغتنا بالعقم أو القصور والجمود » (١)

والشيخ فى تصوره السالف يصور مرحلة هو رائدهـــا وحـــاديها ومنشدها ، ولا دليل فيها ينير الطريق ، وجاءت ــ مع ذلك ــ افتراضاته مرضية ومقبولة ، ونرجو أن تتقبل .

---

(١) فى التطور اللغوى أ . د . عبد الصبور شاهين ص ١١٣ .

ومن ثم فلا نرى الاعتراض عليه بأنه يضرب فى (ميتافيزيقا التاريخ) ، أو انه يخلط بين مراحل النشاط اللغوى ونشأة اللغة ذاتها .

وأن التمثيل من لغات أخرى هروبا من انعدام امكانية التطبيق على لغتنا : فهن شقيقات يسرن الطريق فى الدراسة جنبا الى جنب ، أوان الدعوة للوضـــع الجديد ربمـــا تنقلب الى عملية اختراع عربية أخرى ، او اقحام اشتقاقات أخرى مخترعة تبعدنا عن مألوف لغتنا .

أو أن الدعوة ربما تتطور من تطوير بناء نافع الى عملية تدمير واعصار لتدمير لغوى خطير :

فالأمن متوفر ، والحماية مضمونة ، لأننا نسير على أسس ، ولا نبنى من فراغ ولا فى هواء .. والشيخ العلايلى مجتهد . ورائد يؤسس لمرحلة يقوم فيها الافتراض والتصور ، ومراعاة سنة التطور بدور كبير .. وهى على كل مرحلة تصورية أن كان فيها وهم قليل ، ففيها خيال خصيب ، وارهاص بأن فى لغتنا غناء ، وأنها لا تمد يدها كثيرا للاقتراض ، وانما تمدها للاقراض .

على أن الشيخ العلايلى لم يكن بدعا بين كثير من اللغويين القدامى ، الذين أشاروا الى قريب من قوله هذا ، وبخاصة فى نظرية (المحاكاة) ، سواء من قال بها على أنها ذاتية موجبة ، كما نادى (هيراقليطس) والصيمرى . أو أنها تواطؤية واعتباطية ، كما قال (ديمقريطس) . أو من ذهب مذهبا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء .

وقد تلقف ابن جنى النظرية عن الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، ثم تحمس لها ودافع عنها كثيرا فى (خصائصه) : بأن أصواتا معينة تدل على معـــان معينة . وأن بين ترتيب الأصوات ومراحل ما تدل عليه ان كان ما تدل عليه حدثا مناسبة طبيعية ظاهرة . وقد سمى الباب الأول : (الاشتقاق الأكبر) ، وسمى الثانى : (تصاقب لتصاقب المعانى) ، وسمى الثالث : (أمساس الألفاظ أشباه المعانى) . (١) كما سيجىء

بل وأضاف العلماء أن اختيار الحروف وتشـــبيه أصواتها بالأحداث

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/ ١٣٥ .

المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب . (١) كما سنذكر .

وفى العصر الحاضر ذهب مذهب الخليل وسيبويه وابن جنى طائفة من علماء العربية ، نذكر منهم — على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر — الأستاذ محمد المبارك ، والدكتور صبحى الصالح ، والأب مرمرجى الومنكى ، وجورجى زيدان ، وخير الدين الأسدى (٢) .

بل ان بعض المعاصرين ذهب الى أن الأصوات تدل على معانيها مهما يكن موضعها من الثلاثى . وضرب بعضهم مثلا لذلك بلفظة (غرف) :

فالغين تدل على الغموض ، وهى بذلك تناسب أول مرحلة من مراحل حدث (الغرف) ، عندما يغيب الغارف يده أو مغرفته فى السائل .

وأن الراء تدل على الحركة ، وهى تناسب المرحلة الثانية من الحدث عندما يحرك الغارف مغرفته فى السائل قبل أن يرفعها .

وأن الفاء تدل على الظهور والانفتاح والفصل ، وهذا يناسب آخر مراحل الحدث عندما يرفع الغارف مغرفته فيفصلها عن السائل ، ويظهرها بعد أن كانت مستترة (٣) .

فلا مبرر — بعدئذ — لوصف الشيخ العلايلى — حين ألمع الى الجدول الهجائى الفنيقى — بالاسراف الزائد ، والخرافة المبنية على الأوهام ، والزعم المبنى على غير أساس ، والتكلف الجامح .. كما ذكر الأستاذ محمد الأنطاكى، حين يقول :

« وأسرف بعضهم فى هذا اسرافا زائدا أخرجهم من دائرة البحث العلمى المبنى على الحقائق الى دائرة الخرافة المبنية على الأوهام ، من هؤلاء الأستاذ عبد الله العلايلى ، الذى يزعم أن كل حرف من حروف الأبجدية

---

(١) الخصائص ١٦٢/٢ .
(٢) الوجيز فى فقه اللغة ، للأستاذ الأنطاكى ص ٣٥٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

العربية يدل على معنى خاص ، وانـــه اذا عرفت معانى الحروف أمكن معرفة الكلمة العربية ، ولو لم تكن معروفة من قبل . ثم يمضى فيجعل لهذه الحروف معـــانى فلســـفية لا نظن انها خطرت يـــوما على قلب الانسان العربى ... » (١)

نقول : لاداعى لذلك الهجوم ، ولم يقدم المعترضون البديل ، ومحاولةالشيخ العلايلى ان كان فيها خيال كبير .. فالعقل يرفده ، وشواهد السابقين تسانده ، والوارد من الأمثلة يواكبه .. ولقد ذكر الأستاذ الأنطاكى فى كتابه : « اننا اذا طرحنا كل أنواع التكلف الذى وقع فيه العلايلى وغيره ، فانه يبقى لدينا كمية كبيرة من الشواهد لايمكن تجاهلها . وهى تشير بما لايدع مجالا للشك : الى وجود مناسبة طبيعية بين اللفظ والمعنى » . (٢) وبمثـــل ذلك اعترف (فندريس) العـــالم اللغـــوى ، وأن بعض الأصـــوات اقدر من بعضها على التعبير عن معان معينة . وذكر أن النافين للارتباط بين اللفظ والمعنى اعترفوا بمثل هذا القدر من الارتباط (٣) .

وحسبنا اعتراف العلماء بهذه الظاهرة ، وأن المكية الواردة والمعترف بها كبيرة .

فالأحادية ــ ولاشك ــ كانت مرحلة ، ثم تخطتها البشرية عندما سنحت لها فرصة تطور ، وظرف رقى وترق .

* وما فتئت لغات ــ حتى يومنا هذا ــ فى مجموعـــة الهند وأوروبه (كالهندية الصينية) تضع عددا كبيرا من مفردات معجمها من حرف صامت واحد ، تؤثر فيه النبرات الصوتية (Tons) ينتقل بفضلها الى مفاهيم كثيرة ومختلفة ، كما فى (Fan) (٤) .

---

(١) الوجيز ، للأنطاكى ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ . وتهذيب المقدمة اللغوية للعلايلى الدكتور أسعد على ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الوجيز ، للأنطاكى ص ٣٥٧ .

(٣) اللغة ، لفندريس ص ٢٣٦ .

(٤) الأصوات أ.د.ابراهيم نجا ، ص ٦٠ ، والألسنية العربية للاستاذ ريمون طحان ص ٧٧ .

فالكلمة الصينية تتكون من مقطع واحد مفتوح أو مغلق يدل على معنى عام يحدده السياق .

ويؤيد ذلك الدكتور محمد مصطفى رضوان ، فى مقاله القيم ، بمثل : (ت Ta) فهو يفيد معنى عظيم ، أو كثير ، أو يعظم ، أو عظم . والطريقة التى تتبع فى ترتيب الألفاظ تحدد المعنى المراد ، فاذا قيل : (ت كوك Ta Kuok كان المعنى ، الدولة العظيمة،وان عكسنا الترتيب،وقلنا:(كوك ت Kuok Ta) كان المعنى : الدولة عظيمة ولعل اللغات السامية ــ ومنها العربية ــ انتهجت هذا المنهج فى بداية أمرها .

أو قريبا من هذا المنهج ، بالرغم من أنه ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يفيد الجزم واليقين .

لكن غالب الظن أنها سارت ذات المسرب ، ثم انتقلت فى مرحلة ثانية الى الثنائية والثلاثية عبر آلاف السنين (١) .

وقد آمن بالتطور كثير من الباحثين فى تاريخ اللغات الآرية ، ومن أشهرهم : (بب Popp) من القدماء ، و (ود Wod) و (وتنى Whitney وجيرسبيرسين Jerspersen) من المتأخرين .

* * *

وقد أشار علماؤنا العرب الى أن للحرف فى اللغة العربية قيمة تعبيرية وقد أفاض فى ذلك العالم اللغوى مجد الدين الفيروزآبادى ، فى مفتتح كل فصل وباب من كتابه (٢) .

وذكر بعض المحدثين أن حرف الحاء فى العربية يدل على : الانبساط والسعة والراحة أما حرف الغين ، فيدل على الظلمة والانطباق والخفاء ، والحزن ، ومثل لذلك بالكلمات : (غيم ، غم ، غبن ، غبطة ..) وقد تساءل

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ ــ سنة ١٣٩٢ هـ .

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للعلامة الفيروزآبادى .

بعضهم بقوله : وكيف نفسر : (غنى ، وغنج ، وغلام) (١) وأقول : بقليل من التأمل ترد الى الخفاء والغبطة .

واحتفى الأستاذ محمد المبارك ــ كما ذكرنا من قبل ــ بظاهرة اشتراك ألفاظ من مواد مختلفة فى حرف واحد وفى جزء من معناها : فالألفاظ التالية ، وفيها كلها حرف الغين تدل على الغموض والاستتار ، وهى فى مجالات كثيرة : (غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غرب ، غمض ، غم ، غش ، غز ، غص ، غط ، غبر ، غبش ، غبن ، غبق ، غفا ، غطى ، غفر ، غمر ، غرق ...) .

والنون فى الألفاظ التالية ، وفيها معنى الخروج أو الظهور : « نبع ، نبر ، نبت ، نبز ، نبه ، نبأ ، نجم ، نطق ، نفث ... » .

ولذلك يدعو الأستاذ المبارك الى البحث فى الصـــلات بين الحروف والمجموعات اللغوية مشيرا الى أن ذلك سيكون كاشفا عن أصول العربية وتاريخها الطويل ، وميزتها على أخواتها الساميات والى قياسياتها المطردة ، يقول :

« واعتقد أن البحث فى الصلة بين المجموعات الثلاثية وفيما يمكن أن أسميه (التركيب الذرى) للكلمة ، هو بحث تاريخى يرجع بنا الى عهود قديمة للغة العربية ، استقر فى نهايتها على شكل هذه المجموعات الثلاثية الرائعة ، التى كانت نتيجة تطور لمراحل تكوينية سبقتها ، تحتاج معرفتها الى بحوث تاريخية واسعة تتناول اللغات السامية جميعا ، وتنتهى الى تعليل بقاء العربية وحدها دون غيرها من الساميات . وتوحى هـــذه الأمثلة الى أن تركيب الكلمة العربية يشبه كثيرا تركيب المواد الطبيعية المؤلفة من ذرات متفاوتة التركيب » (٢) .

ويعطينا الشيخ العلايلى تصورا مقبولا للقيمة التعبيرية للحرف المفرد ، لدور سابق ومرحلة موغلة فى قدم التاريخ البشرى : فيرى مثلا ، أن حروف (ج ب ل) تعطى تصورا صحيحا عن الجبل فى ارتفاعه وشموخه ،

---

(١) نظريات فى اللغة ص ١٩ .

(٢) عبقرية اللغة العربية ، للأستاذ محمد المبارك ص ٢٢ ، ٢٣ .

واتصاله وتمكنه ، يقول : (الجيم) معناه الارتفاع ، وحرف (الباء) معناه البيت وحرف (اللام) يرمز الى الملاصقة . والمعنى المؤلف من الحروف مجتمعة : (بيت مرتفع ملاصق للسحاب أو للأرض) ، وهو تصور صحيح ومقبول عن (جبل) .

ويحل كلمة (سمك) الى (كف الماء القوى) ، هكذا : (السين) معناه الدعامة وهو يرمز الى مطلق القوى . (والميم) ترمز الى المياه . (الكاف) بمعنى الكف وهو يرمز الى مطلق التبسيط فى صغر . وهذا أيضا تصور مقبول وصحيح عن (سمك) .

ومازالت الاعتراضات تتوالى على الشيخ العلايلى (١) : بأن الحرف وان أوحى بجزء من المعنى ، الا أنه لا يملك التعبير عنه بانفراده ، ومعنى ذلك أن الحرف بمفرده تنعدم قيمته التعبيرية ، وان أوحى جرسه بشىء قريب من المعنى .

ومن علماء اللغة من أنكر القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، صراحة ، ويرى « أن الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الأحادية » كما يتوهم بعضهم أن الانسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها الا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة لا فى اللفظ ، والسبب : أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم (حروفا صامتة متفرقة) بل مقاطع مركبة من الصامتات ، تحركها الصائتات » (٢) .

وهذا الرفض المطلق لا نوافق عليه ، اذ أن لغتنا قد عرفت فعلا قيمة تعبيرية للحرف الواحد ، كما أوحت بفروق دقيقة بين حرف وآخر ، قربه مخرجهما أو اتحد .. كالفرق بين حروف (الحلق) الستة — الهمز والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء — وتفاوت المعنى بين التعبير بالحاء أو الخاء ، كما فى قوله تعالى : **« فيهما عينان نضاختان »** (٣) وفى الأثر « كل اناء بما فيه ينضح » ففى الخاء شدة وقوة ، وفى الحاء ضعف ورخاوة ، مع أنهما

---

(١) فى التطور اللغوى ص ٩٨ .

(٢) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجى الدومنكى ص ٩٨ ، وذكر (فندريس) مثل ذلك فى كتابه (اللغة ص ٢٣٦) .

(٣) الرحمن : ٦٦

(الخاء والحاء) حلقيان الا أن الآية عبرت عن شدة النضخ وافاد الأثـــر رخاوته .. فضلا عن أن هناك من الحروف . ما زال أمره محيرا : أفرغ من محتواه أم وضعته العرب كذلك كحروف العطف (الواو والفاء) وحرف الجر (الباء) .. فنحن نؤيد أن الحرف استعمل واستقل بقيمة تعبيرية فى مرحلة معينة ، حتى واكبته أسباب حياتية ومعيشية أخرى ، فنقلته مع صاحبه والمعنى الى دور أرقى من أدوار الحياة على سنة التدرج الطبيعى ، وأحيانا الى العكس .

وأحدث الآراء اليوم هو القائل : بأن اللغة نشأت كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأة ساذجة .

ثم تطورت بمرور الزمن وتتابع التجارب ، وقد أدى تباين المشاهدات التجارب وتنوعاتها،واختلاف البيئات والأوساط والطبائع الى اختلاف اللغات.

من أسرار العربية :

اللغة ـــ اذن ـــ لم تبدأ ـــ فى أول أمرها ـــ بالمنطق والفكر ، ومن ثم تبعنا المنهج الوصفى فى تتبع تأريخها ومحاولة الكشف عن حقبها السحيقة ، ولم نتبع المنهج الفلسفى الاغريقى الذى ادعى أن اللغة منطقية .

وتنفرد مجموعة اللغات السامية بميزة ظاهرة ، هى الاعتماد على الجذر والاشتقاق وفى لغتنا العربية نجد أن كل مجموعة تشترك فى الجذر الأصلى ومعنى عاما يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة . وثبـــات الحروف الأصلية يســـاعد على كشف العلاقات بين ألفاظهـــا :

فالصديق والصداقة .. من مادة (الصدق) . والعدو ، وعدا واعتدى من (العدوان) وهو التجاوز فى الظلم .

ومحصل ذلك : (أن المعانى العامة أو الكلية تتجمع فى مجموعات من الألفاظ هى أشبه بالقبائل العربية ، ويبقى فى اللغة دائما عنصر خالد ثابت فى مادة الألفاظ .. وفى معانيها » (١) . وبقيت محافظة على انسابها مهما نأت ديارها .

وحين لمس علماؤنا القدامى المناسبة بين اللفظ والمعنى اشاروا الى تلك الظاهرة ، وتتبعوها من قديم : وعقد لها ابن جنى فصلا فى خصـــائصه ،

---

(١) عبقرية اللغة العربية ، للاستاذ محمد المبارك ص ١٩ .

بعنوان (باب امساس الألفاظ أشباه المعانى) (١) ، ذكر فيه : أن الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، قد نبها عليه ، وأن جماعة اللغويين قد تلقته بالقبول .. وحددوا الأماكن التى تكون فيها هذه الظاهرة واضحة جلية .

كما تظهر فى الألفاظ التى تحكى أصواتا ، كخرير الماء ، وأزير القدر .

أو فى المصادر التى تتابع حركاتها ، كالغليان ، والدوران ، والجمزى والبشكى .

أو فى حروف اذا تصدرت الفعل نقلته من حال الى حال : فالفعل (غفر) يفيد ثبوت المغفرة ، وحروف الاستقبال ، تنقله الى طلب المغفرة ورجاء تحقيقها فى (استغفر) .

كما تظهر فى اختيار اللفظ المناسب للحدث قوة وضعفا ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث : فالنضح (بالحاء) لرش الماء برقة ، والنضخ (بالخاء) لشدة فورانه وقوته ، اذ فى الحاء لين ورخاوة ، والخاء تزيد عليها شدة وقوة .. ومن هنا نلمح سر الاعجاز فى التعبير القرآنى عن متع الجنة ونعيمها : « **فيهما عينان نضاختان** » بالخاء ، وفى الأثر (كل اناء بما فيه ينضح) بالحاء . وأيضا مثل : (خضم) لأكل الشىء الطرى ، و (قضم) لأكل الشىء اليابس الجاف : اذ فى الخاء رخاوة ، وفى القاف صلابة . ولله در أبى ذر — رضى الله عنه — حين صاح منكرا على الحكام نعيمهم وترفهم وشظف عيش رعيتهم : (ويخضمون ونقضم ، والموعد الله) .

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبا ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود ويمثل ابن جنى لذلك بحروف (بحث) :

(فالباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و (الحاء) لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما اذا غارت فى الأرض . و (الثاء) للنفث والبث للتراب (٢) .

---

(١) الخصائص ١/٥٤٤ .

(٢) الخصائص ١/٤٥٦ .

وأكثر من ذلك ، نجد أن المعنى العام باق مع تقاليب حروف المادة ، وقد نبه على ذلك القدامى كالخليل بن أحمد ، وابن دريد ، والفارسى ، وسماه ابن جنى بالاشتقاق الأكبر . والمادة الثلاثية تعطى ست مواد فى تقاليبها ، والرباعية تعطى أربعا وعشرين ، والخماسية تعطى مائة وعشرين . وقد تستعمل كل التقاليب أو بعضها أو تهمل كلها لاهمال الأصـــل . فتقاليب (سلم) الستة تفيد معنى السهولة والأصحاب والملاينة .

وتقاليب (جبر) تدور حول معنى عام هو الشدة والقوة (١) فى (جبر جرب ، بجر ، برج ، ربج ، رجب) .

ويرى الشيخ العلايلى ، أن : « القاعدة تقضى بوجود جامع معنوى بين المقاليب الستة ، لايمكن أن يتخلف ، وان كان على بعد » (٢) .

وهكذا ظل الاشتراك فى كل الحروف أو بعضها ، مع الصلة الصوتية السبيل لمعرفة الأصل ، وفى معجم مقاييس اللغة لابن فارس الحشد الهائل والأمثلة الوفيرة لتبيان ذلك ، اذ قد شارك أصحاب المعاجم فى جمع الكلمات المشتقة من مادة واحدة فى باب واحد ، وزاد عليهم بتتبعه لمعانى مفردات الباب الواحد ، وارجاعها الى أصل واحد ، أو عدة أصول من المعانى .

ولذلك فنحن لانذهب مذهب الأب مرمرجى الدومنكى ـــ وهو مسبوق فى ذلك الرأى ـــ حين ينفى وجود علاقة طبيعية بين الصوت وحروف الكلمة ، وبين « المعنى المتعلق بها ، لأن الأصوات مجردة ليس من طبيعتها ما يجعلها دالة حتما على الشىء الفلانى ، أو الفحوى الفلانى ، وانما تنشأ الصلة بين الصوت ومعناته اتفاقا ، أو بارادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال ... » الى أن يقول : « اننا لا نجحد أن لبعض الكائنات دويا ، وللحيوانات أصواتا ، بيد أن الناس يحاكون هذا الدوى ، وهذه الأصوات بطرق متباينة ، اذ أن كل فريق يتوهم سماع نوع من الدوى والصـــوت فيحاكيها ، طبقا لهذا الوهم » (٣) ونقول له : حسبنا الدوى والاصوات وتوهم المتوهمين ، ليصوغوا منه ما يفهمون وما ينطقون .

---

(١) الجمهرة لابن دريد ١ / ٢٠٧ ، والخصائص ١ / ٥٢٥ .
(٢) مقدمة ، للعلايلى ص ١٤٩ .
(٣) معجميات عربية سامية ، للاب مرمرجى ص ١٠٢ .

وقد بهرت هذه الظاهرة العجيبة فى لغتنا علماء اللغة ، وهى وشائج القربى والصلات الواضحة بين المجموعات اللغوية ، سواء اشتركت فى حرفين أو فى حرف واحد مما يوحى بأن القول بالأحادية فى نشأة اللغة له أساس : ثم تدرجت من هذا الدور نحو الاكتناز ، لتفى بما يطلب منها تبعا لمقتضيات التطور .

فالكلمات المشتركة فى الحرفين (ن ، ف) تدور حول معنى الخروج ، مثل : (نفث ، نفح ، نفخ ، نقد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى)

وكل ما فيه حرف الغين (غ) يدل على الغموض والاستتار ، مثل (غاب غار غاص غاض غام غرب غمض غم غش غز غص غن غبر غبن غبق غفا غطى غرق غمر غفر) ...

وفى مقاييس ابن فارس الشىء الكثير من ذلك كما قلنا ..

وكانت اشارات علمائنا القدامى والمحدثين الى ذلك ايحاء وباعثا حثيثا بضرورة معرفة الرأى فى نشأة اللغة العربية والقول بالثنائية أو الثلاثية .

الا أن الأقدمين — من علمائنا — لم يشيروا صراحة الى القول بالثنائية وانها أصل الوضع ، وانما كان بحثهم تاريخيا ، يرجع باللغة الى عهود تحاول معرفة تدرج الفاظ اللغة وتطورها ، حتى استقرت فى طورها الأخير الى صورها وأشكالها المرضية والمعبرة والمفيدة .. وازدادت الأبحاث عمقا عند المحدثين فى ضوء أبحاث المجموعات اللغوية الأخرى ، وبخاصة فى الساميات .

* * *